

الكتاب السابع

١- لقد كان هذا ما أنجزه الامبراطور مانويل حتى الآن في القارتين، وسأقدم فيما يلي تسجيلاً لما حلّ به، عندما كان في حملة في آسيا، ذلك أن قلع أرسلان، الذي ورد ذكره كثيراً فيما مضى من روايات، والذي زوده الامبراطور بكميات كبيرة من المال، حسبما قلت [كذا]، قد ارتقى إلى درجة عالية جداً من القوة، وكان قادراً على حرمان عدد كبير من الحكام من إماراتهم، لاسيما أنه حجر على شاهنشاه، الذي كان أخوه، وصدرا عن الأصل نفسه، وكان يحكم غانغرا وأنقره، وهما من مدن غاليشيا، فقد وضعها تحت سلطته، وبما أنه لم يكن قادراً على قتله، اضطره للتجول بين جميع الدول وبني البشر بمثابة غريب وأجنبي، كما أنه لم يُعد إلى الامبراطور أياً من المدن التي كان قد استولى عليها، كما أنه لم يرغب بتنفيذ أي من بقية الأشياء، التي كان وافق عليها فيما مضى، ولقد عامل جميع الناس بتكبر ورعونة، ولم يكن منضبط الرغبات، ولدى تفحص الامبراطور لهذا وتقديره له غضب غضباً شديداً، وكان مزعوجاً تجاه القضية، لكن بما أنه شغل عن هذه الأشياء بمشاكل الغرب، لم يرغب في اثاره الذين كانوا في آسيا، وعندما لم تبق هناك أية حروب في الغرب، ولم يظهر بالأفق القريب أي شيء من هذا القبيل، لأنه كان ناجحاً هناك في كل شيء، قام بحشد قوة كافية، وقرر الجواز إلى هناك (١) [آسيا].

وما أن سمع قلع أرسلان بهذا حتى بعث برسله إلى الامبراطور، معلناً موافقته على القيام بتنفيذ مختلف القضايا تبعاً لارادته، وطلب أن تقوم القوات الرومانية المنوي ارسالها إلى آسيا، بالعسكرة بالمدن التي يختارها الامبراطور، وهو سيقوم شخصياً بالالتحاق بالقوات الرومانية في الصراع

من أجل هذا المقصد، وبعدهما تسلم الامبراطور هذه [الرسالة] بعث ألكسيوس بتراليفاس ومعه جيش وصل تعداده إلى ستة آلاف، وعهد إليه بمبلغ من المال، اعتقد أنه يكفي للانفاق على الحرب، وعلى هذا الأساس انطلق ألكسيوس نحو آسيا، وعندما سمع قلعج أرسلان أن الجيش الروماني بات قريباً، أنذر المدن التي مازالت لم تقهر من قبله، وعرض عليها الاستسلام قبل وصول جيش الامبراطور، وادراكاً من هذه المدن أنها لن تستطيع مقاومة كل من الجيشين الروماني والتركي، تخلت بدون رغبة له، وما ان كسب السلطة على هذه المدن، حتى رفض التخلي عن أي منها وتسليمها إلى الرومان.

وكان الامبراطور لهذا السبب مزعوجاً، وعزم على الانطلاق نحو الحرب فوراً، لكن بما أن شؤونه لم تسمح له (لأن ربيع [١١٧٥])، كان قد مرّ، وهو الموسم الموائم بشكل خاص للأعمال العسكرية، وكان قد خطط ليقوم بأشياء متنوعة مفيدة للرومان، وعلى الخصوص بناء مدن حيثما رغب، اضافة إلى المصيصة، وهي مدينة شرقية، كانت تسعى آنذاك للالتحاق به، وكان لهذا سيكون سهلاً للرومان الاستيلاء عليها) لذلك عمل حسبما يلي:

أرسل إلى بافلاغونيا ميخائيل الذي كانت كنيته غابراس، وهو رجل — كما قلت مراراً — قد ارتقى إلى مرتبة سيياستوي، وكان خبيراً ممتازاً بالأعمال العسكرية، وأخذ معه شطراً من جيش، وكانت البقية سيتم حشدها من قرى قامت هناك حول طرابزون وأوينانيون Oinaion، ومدن بنتش، وبعدهما قام بجمعها، أمره [مانويل] بالسير إلى المصيصة.

وحدث في الوقت نفسه حادث كان كما يلي: كان لجون كانتاكوزينوس — الذي تحدثنا عنه مراراً في الروايات المتقدمة — ولد اسمه مانويل، بهي الطلعة وسيماً، وكان متفوقاً بالقوة على جميع قرنائاه وأتباعه (٢)، وقد

تورط في أعمال ممنوعة [أي خيانية]، ولهذا وجه إليه الامبراطور في البداية النصيحة، محاولاً منعه من التورط بمثل هذه الأشياء، ولكن عندما تمسك بتهوره، دون أن يكبح نفسه، أمر به الامبراطور إلى السجن، وقد حدث [أمر ما] هو طبيعي بالنسبة لبعض الذين في وظائف عليا، (عندما يحاولون في كثير من الحالات جذب انتباه الامبراطور لهم ونيل عطفه)، فعندما وصل إلى السجن حرموا الفتى من عينيه، وذلك خلافاً لارادة الامبراطور، وعندما سمع الامبراطور بهذا، غضب كثيراً، وأقسم أن هذا اقترف بحق الفتى دون معرفته، ومع هذا فقد تحمل الآلام، لأنه لم يعرف كيف يمكنه تسويغ معاقبة الذين فعلوا ذلك.

٢- وكنا قد ذكرنا أنه قد بعث ميخائيل [غابراس] إلى المصيصة، وقام هو نفسه بجواز مضيق داماليس [البوسفور]، وتوجه مباشرة إلى ميلانغيا Melangeia [١١٧٥]، وبعدما قام بحشد قوة كافية من بيثينا والرينداكوس Rhyndakos ، توجه إلى سهول دوريليون Dor-ylaion ، بهدف شحن الحصون الرومانية هناك بالمؤن، مادام السلام مازال قائماً، وأيضاً بهدف تشجيع الذين كانوا معادين للسلطان، وكان هذا هاماً بالنسبة له، وذلك بالاضافة إلى إعادة بناء دوريليون.

وكانت دوريليون فيما مضى مدينة عظيمة مثل أي مدينة في آسيا، وتستحق اهتماماً كبيراً، فقد كانت تهب عليها نسائم لطيفة، وامتدت السهول حولها، وكانت ناعمة جداً، وتقدم منظرأ على درجة عالية من الجمال، وكانت هذه السهول خصبة جداً تنتج كثيراً من الأعشاب وتعطي قمحاً رائعاً، وكان هناك نهر، جميلاً أن تراه، حلواً أن تتذوق مياهه، يجري في وسطها، وفيه كميات هائلة من الأسماك التي تسبح فيه هناك، ويصطاد السكان الكثير الكثير ولا يعانون من النقص، وكان في هذه المدينة أبنية جميلة بُنيت في أيام القياصرة المتقدمين من الميليسينوي Melissenoi ، كما وكان هناك قرى مكتظة بالسكان وينابيع دافئة،

وحمامات ذوات أعمدة وقناطر، مما يحقق البهجة ويجلبها للناس، وكان بالعادة أن يعطي المكان وفرة من المتوجات، لكن عندما وصل هجوم الأتراك على الأراضي الرومانية ذروته، هدموا المدينة ودمروا حتى الأساسات، وجعلوها خالية من السكان، وباد هناك كل شيء، ولم يبق هناك أدنى أثر من عظمتها الماضية، هكذا كانت هذه المدينة (٣).

وكان في تلك الآونة حوالي الألفين من الأتراك المتجولين، معسكرين حسب عوائدهم حولها، وبعدما قام الامبراطور بطردهم من هناك، وضع حاجزاً أحاط بالمكان ليس بعيداً عن المدينة، وأعدّ العدة لبناء أسوار هناك، وهكذا بُنيت المدينة بسرعة، ممثلة في داخلها خطة المدينة القديمة، مع سور يحيط بها، وله أبعاد متساوية من كل جانب، ولم تكن بعيدة عن رابية اصطناعية شيدت فيما مضى لبناء قلعة عليها، واعتاد الامبراطور أن يخرج يومياً من هناك مع عدد قليل من الرجال، ويكمن، ويفاجيء الأتراك وجهاً لوجه وبذلك قتل عدداً كبيراً منهم، لابل حتى إنه قتل بعض الشخصيات البارزة بينهم، لأن كثيراً من الأتراك لم يتوقفوا عن القدوم من المناطق الداخلية، والتهور بالغارة بقصد اعاقا أعمال البناء، ثم قام الامبراطور أيضاً بارسال شاهنشاه، الذي سلف لي ذكره، والذي جاء فيما مضى بمثابة لاجيء إلى الامبراطور، لقد بعث به إلى ما وراء أراضي قونية، وذلك بعدما زوده بالمال، ورافقه أيضاً جيش عندما ركب الطريق إلى بافلاغونيا، ولكنه لم يذهب بعيداً، لأنه اصطدم بقوة تركية كانت تنتظره، قتلت كثيراً من الرومان الذين كانوا معه وحصلت على غنائم كافية، ونجا شاهنشاه بكل صعوبة، وعاد إلى الامبراطور مرعوباً، وهكذا انتهت أعمال هذا الرجل دوماً بنهاية سيئة، فهذا ما كان قد صنع في دوريليون.

ووصل ميخائيل غابراس مع جيشه إلى المصيصة، ووجهت إليه الدعوة من قبل الذين كانت المدينة في أيديهم للدخول إليها مباشرة (٤)،

ونظراً لوجود قوة أخرى بعث بها قلعج أرسلان للغرض نفسه كانت معسكرة هناك ليس بعيداً عن المدينة، أعوزته الشجاعة للدخول، ذلك أنه حمل في نفسه ريبة عظيمة نحو الذين كانوا بالداخل، وكان يخشى أنهم يخططون لمؤامرة ضده، ولهذا الأسباب أرسلوا رهائن إليه، وقدموا عن طواعية القلعة إلى الرومان، لكن بعض الخوف استولى على الرجل فجأة، مما دفعه إلى الانسحاب لعذر أو آخر، حتى ان الذين كانوا في المدينة باتوا يخشون أنه عندما سيتولى قلعج أرسلان على المدينة، بسبب تأخر الرومان وتقاعسهم الطويل، سيصبحون في وضع يكرهون فيه بشكل دائم سيدهم المستقبل، وقاموا، بدون معرفة من حاكمهم، بالتخلي عن المدينة إلى الأتراك، وانطلق ميخائيل من هناك وعاد إلى الأراضي الرومانية، دون أن يتذكر الرومان، الذين — كما قلنا — كانوا في القلعة، أو يتذكر سواهم من الآخرين.

وانتهت على هذه الصورة الأعمال في المصيصة، وعندما علم الامبراطور — الذي كان ما يزال مقيماً حول دوريليون — بما حدث، بعث بالخصي توماس إلى قلعج أرسلان، وقد ضغط عليه بطلبه إعادة المصيصة، واتهمه بإهمال أعيانه، وهدده أنه إذا لم يتوقف عن إلحاق الأذى بهذه الطريقة بالرومان، لسوف يعاني بعد وقت ليس بالطويل من انتقام عادل، لكن من كان توماس هذا، إن هذا ما سأوضحه فيما يلي:

لقد ولد في جزيرة ليسبوس Lesbos ، وجاء من أسرة مغمورة، وبالنظر إلى أن لديه صنعة جديدة بالتقدير، فقد ذهب إلى بيزنطة، وأخذ يمارس صنعة قطع عروق الناس [حجام]، وبذلك كسب نفقات معيشتة، ولكن يبدو أن مامن شيء على الإطلاق لن يكون مفيداً عندما يكون الحظ موافياً، فصحيح أن توماس مارس أدنى الحرف مكانة، لكن ببراعته أصبح عظيماً مثل أي رجل آخر في البلاط الامبراطوري، وبعدهما حصل على مبلغ كبير من المال في وقت قصير، غادر بعد مضي

عدة سنوات هارباً إلى فلسطين مع أمواله، لكن بما أن الأمور لم تمض هناك بما يتوافق مع رغباته، عاد ثانية إلى الامبراطور. إنها بعدما لاقى العطف منه والرعاية، برهن فيما بعد أنه غير مُرضٍ، ولهذا أُلقي بالسجن في القصر، وهو السجن الذي يعرف باسم الفيلي [أي العاجي]، وهناك أمضى بقية حياته، لكن هذا حدث له فيما بعد، المهم أنه ذهب آنذاك إلى السلطان — كما قلنا —، وبما أنه لم يمتلك الرغبة في تنفيذ أي من هذه الأشياء التي جاء من أجلها، فقد عاد فارغ اليدين إلى الامبراطور، وكاد في ذلك الوقت أن يتمكن الأتراك الذين تربصوا له على الطريق أن يقتلوه (٥).

٣- وتمكن الامبراطور في مدة أربعين يوماً من تشييد المدينة، وبعدها أحاطها بخندق أسكن فيها كثيراً من الرومان، وترك حامية كافية لحمايتها، غادرها وعسكر في منطقة حول رينداكوس، وبعد توقف قصير هناك، قاد جيشه وتقدم نحو الأمام، وعندما لاحظ أن عدداً قليلاً بقي برفقته (لأن الجزء الأعظم من الوحدات العسكرية قد ذهب إلى بلاده، دون أن يعلم بذلك، مع أنه كان من قبل قد أعطى أوامر مؤكدة بعدم مغادرة أي واحد من ذلك الجيش) أرسل رجلاً اسمه ميخائيل، وكان من أصل بربري (في الحقيقة كان اسمه السالف اسحق) (٦) من الذين خدموا في حواشي بيته، أرسله لإنزال عقوبات جسدية لبعض الفارين من الجند، وقام الامبراطور شخصياً بالمرور خلال السهول التي تقود إلى لامب Lampe [في فريجيا] (٧)، وأعاد بناء إحدى القلاع (وكان اسمها سوبلايون Soublaion) (٨)، وقد أقيمت في مكان حول ينابيع مياندر، وكانت قد سقطت بفعل الأيام، ومن هناك شرع الامبراطور بالاشتباك مع الأعداء، لكن ليس بالطريقة التي اعتادها، بل ثار واندفع بشكل لايقاوم مثل النار أو الماء.

وبينما الامبراطور مشغول بهذه الأعمال، كان ميخائيل المذكور أعلاه،

يحمل حقداً دفيناً ضد الرومان منذ زمن طويل مضى، لذلك اتخذ غضب الامبراطور عذراً له، فكان يمدّ على الأرض كل من التقاه، ويجعله ينكب على وجهه، ثم يقوم بدون استجواب بغرس الحديد في عينيه، ويتركه هناك تعيساً، لا يفقه حتى لماذا أنزل به البلاء، وكان بعض الذين ابتلوا في بعض الأحيان ليسوا حتى أعضاء في الجيش، بل فلاحين، أو عاملين بالتجارة أو أنواع أخرى من الناس، وقد انتقل إلى أماكن أخرى، وشوه أجساد أعداد كبيرة من الرجال، واستمر هذا حتى علم الامبراطور بالذي كان يحدث (لأنه كان قد أكمل بنجاح الأعمال بالحصن، وعاد إلى بيزنطة) فأوقفه وأوقف أعمال انتقامه، لابل أكثر من ذلك كاد أن يتعرض إلى نوع الجزاء نفسه، لكن الامبراطور قدّر أنه لن يتجرأ ثانية على إنزال مثل هذه الأشياء ثانية بالرومان، لذلك عفا عنه، وحرره من التهم الموجهة إليه، وعلى كل حال لم يمض وقت طويل على هذا، حتى تناولته العدالة، وأزالته من بين الجنس البشري، وأنزلت بأولاده سوء المصير.

ثم استدعى الامبراطور ميخائيل غابراس للمحاكمة، وعندما أدانه (لأنه رسم أنه من الممكن انزال عقوبات به وفقاً لارادته) وضع الأغلل في قدميه مع الحديد، وألقاه لبعض الوقت في واحد من سجون القصر، لكنه استدعاه بعد ذلك وأعاد إليه اعتباره ثانية مع رتبته السالفة.

وعندما علم قلعج أرسلان بهجوم الامبراطور (لأن ماحدث حول دوريليون أثر بشكل حاد على معنوياته) أرسل إلى بيزنطة واحداً من ذوي النفوذ العظيم في بلاطه وكان اسمه غفراس (٩)، ليتقدم بالرجاء إلى الامبراطور علّه يرضى بأخذ أي من القلاع تبدو مرضية له، ومن ثم يقلع عن غضبه عليه [السلطان]، ومهما يكن من أمر، رفض الامبراطور هذه الرسالة، وأعاد غفراس، وحشد عساكر كثيرة جداً من الصرب والهنغار، واستعد بكل عناية للحرب، وخشية منه أن يحتاج الجند والخيول إلى ضروريات الحياة، جرى سوق عدد من الثيران من القرى في تراقية، وكان

هناك ما يزيد على ثلاثة آلاف عربة.

وعندما ظهر ربيع [١١٧٦] جاز إلى آسيا، وحسبما جرت العادة حشد عساكره عند رينداكوس Rhyndakos ولم يصل الحلفاء من الهنغار والصرب —الذين كانوا رعايا للرومان— في اللحظة المناسبة، مما سبب قيامه بالحملة في موسم الصيف، ولذلك السبب بالذات واجهت أموره الدمار: ففي الأمور العسكرية والنشاطات الحربية، التوقيت هو الأكثر أهمية من أي شيء آخر، وهكذا سار الامبراطور خلال لوديكيما والمناطق المجاورة لمياندر، واضعاً بذهنه العسكرة والاستقرار مع القوات جميعها من أجل حصار قونية، وبما أن نو—قيسارية كانت تسعى للانضمام إليه، فقد بعث بابن أخته أندرونيكوس باتاتزس Batatzes إليها مع جيش، على أن يرتحل من خلال مناطق بافلاغونيا، وكان مانويل قد قام قبل مغادرته بيزنطة بارسال أسطول قوامه مائة وخمسين سفينة إلى مصر، وذلك بالوقت الذي كان ذاهباً به مع القوات جميعها للحرب ضد قلع أرسلان (١٠)، ولهذا السبب افتقر إلى ما يكفي من قوات [للحملة] ضد مصر...

[انقطع النص هنا، فخلال زحفه نحو قونية، انهزم مانويل في ١٧-أيلول ١١٧٦ هزيمة ساحقة، وسحق جيشه إلى أبعد الحدود في معركة ميريوكيفالون Myriokephalon . ثم كان أن توفي عام ١١٨٠].